الأدب الإسلامي (1)

بقلم : د/ خالد حماش

الأدب هو اللغة الراقية الجميلة التي تشد النفوس، وتأسر القلوب وتمتلك المشاعر، وتحاور العقول، وتستنهض الهمم، وترعى القيم، وتحارب الظلم، وتبلغ بالسامع أعلى درجات التأثير، هو الشعر والرواية والقصة القصيرة والنثر الفني والمسرحية .... هو كل ما تبتكر قرائح المبدعين وتسمو به لغة المتميزين من فنون تجسد أفراح الناس وأتراحهم وتصور أحاسيسهم ومشاعرهم، وتصف مآسيهم ومعاناتهم، وتربي عقولهم وعواطفهم، وتنمي فيهم العلاقات الإنسانية لترقى بها إلى خالقها وبارئها.

ولعل كلمة الأدب كانت غنية بنفسها عن الوصف أو القيد أو التصنيف بالخير أو بالشر بالإسلامية أو القومية أو الاشتراكية أو بالالتزام أو التحلل وما سوى ذلك إذ إن أصلها اللغوي كما جاء في المعاجم لا يعدو أحد أمرين خيرين خاليين من الشر: **الأول:**

أن تدعو الناس على طعام وهي المَأْدَبَة أو المَأْدُبَة، والآدب الداعي، قال طرفة:

نَحنُ في المَشتاةِ نَدعو الجَفَلى
لا تَرى الآدِبَ فينا يَنتَقِر

أي ندعو الناس عامة ولا ننتخب انتخابا.

والثاني: الأَدَبُ، وهو مجمع على استحسانه[1].

وفي حديث ابن مسعود ـرضي الله عنهـ: ((**إن هذا القرآن مأدبة الله**)) جمع بين المعنيين فالقرآن كلام الله تعالى وهو لغة بلغت في حسن بيانها وبلاغتها مبلغ الإعجاز، يجتمع

(1) المقاييس في اللغة أحمد بن فارس م (أدب) ص64 دار الفكر ط2 98م

الناس عليه وينتفعون به، واستعير لهذه الحالة المعنوية اجتماع الناس وقت الحاجة الماسة على طعام كريم، فكما أن حياة الأبدان بالطعام ، فإن حياة الأرواح والعقول والمشاعر والعواطف بالقرآن وبكل أدب رفيع.

ولعل المكانة التي كان يحظى بها الشعراء قبل الإسلام، ودورهم في الدفاع عن قيم وأخلاق وشرف القبيلة، وما حمله الشعر قبل الإسلام من القيم والمبادئ والأخلاق الكريمة دليل على أن الأدب كان خالصاً للخير، ويؤيد هذا أيضاً ما حملته لفظة الأدب من معان طيبة في الاستعمال الغربي قديماً وحديثاً، يقول رسول الله -النبي صلى الله عليه وسلم- : "**أدبني ربي فأحسن تأديبي**". فهو يدل على حسن الخلق والاستقامة والكياسة واللباقة.

إلا أن ما أقدم عليه بعض الشعراء في الجاهلية من حرف لرسالة الأدب عن مسارها ومن استخدام وسائله اللغوية الفنية في غير أغراضه النبيلة من تغزل فاضح بالنساء وإثارة للغرائز ومن تكسب بالشعر تملقاً ونفاقاً للحكام والأغنياء ومن هجاء مقذع يجرح المشاعر ويخدش الشرف ويمزق الأعراض، وأسوأ ما هبط إليه الأدب لدى الشعراء المشركين الذين وظفوا فنهم في مهاجمة الإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم والدفاع عن الشرك والجاهلين، وهذا ما جعل القران الكريم يهاجم هؤلاء الشعراء ويشخص حالهم بأبلغ إشارة، وأوجز عبارة، ليميز الأدب الحقيقي من الأدب الزائف المنحرف، قال تعالى: **(والشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (226) إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (227))** [الشعراء: 224-227]، لقد بدأت الآيات بداية تهويل لغلبة الفساد على الشعراء، ولخطورة الأمر وأهميته كما في قوله تعالى: **(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))** فأخرت الاستثناء بعد أن أوهمت البداية بفساد جميع الشعراء وقبل أن تستثني أصناف الفائزين من الشعراء بينت سبب ضلال هؤلاء الشعراء وعبرت عن ضلالهم باتباع الغاوين لهم، وفي ذلك إيماء إلى ريادتهم في الفساد فهم أصحاب المواهب والمواقف والتأثير في الآخرين وسبب غوايتهم أنهم **(فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ)** أي يخوضون في كل لغو، ويتخبطون على غير هدى، ولا يتبعون سنن الحق، لأن من اتبع الحق، وعلم أنه يُكتب عليه ما يقوله تثبت و لم يكن هائماً على وجهه لا يبالي ما قال، **(وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ)** أن يدلون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه[1]، فهما صفتان استحق بهما الشعراء أن يوصموا

(1) القرطبي 153/13

بالريادة في الغواية، الأولى: الزيغ والضلال وعدم التثبت، والثانية: مخالفة القول للفعل **(كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ)** [الصف: 3]، وقد ذكر المفسرون أن هذه الآيات عنت عبد الله بن الزبعري، ويافع بن عبد مناف، وأمية بن أبي الصلت، وأبي عزة الجمحي الذي قال:

ألا أبلغا عني النبيّ محمداً
بأنك حقٌ والمليك حميد
ولكن إذا ذكرت بدراً وأهله
تأوه مني أعظم وجلود

ومن المعلوم أن خصوص السبب لا يلغي عموم المراد، ثم استثنت الآيات شعر المؤمنين حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير ومن كان على طريقتهم بقوله تعالى: **(إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً)** أي الذين ضمنوا شعرهم الإيمان والعمل الصالح وذكر الله وكل ما يدعو إلى الفضائل والأخلاق الحميدة، وهو ما نسميه اليوم بالشعر الإسلامي، ثم ذكر صنفاً آخر من الشعر الذي فيه هجاء وتنديد بالمشركين، وهذا الشعر لا يصدر عن المسلمين إلا في حال رد عدوان المشركين والدفاع عن الإسلام ورموزه وقيمه ... وهذا ما كان يفعله حسان بن ثابت ويروى **أنه لما نزلت الآيات (والشعراء يتبعهم ...) جاء حسان وكعب بن مالك وابن رواحة إلى النبي – صلى الله عليه وسلم– فقالوا يا نبي الله أنزل الله هذه الآية ويعلم أنا شعراء؟ فقال اقرؤوا ما بعدها (إلا الَّذِينَ آمَنُوا...) أنتم (وَانتَصَرُوا...) أنتم، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: «انتصروا ولا تقولوا إلا حقاً ولا تذكروا الآباء والأمهات»**[1].

ومن شعر حسان في الرد على أبي سفيان[2]:

هَجَوتَ مُحَمَّداً فَأَجَبتُ عَنهُ
وَعِندَ اللَه في ذاكَ الجَزاءُ
أَتَهجوهُ وَلَستَ لَهُ بِكُفءٍ
فَشَرُّكُما لِخَيرِكُما الفِداءُ
فَإِنَّ أَبي وَوالِدَهُ وَعِرضي
لِعِرضِ مُحَمَّدٍ مِنكُم وِقاءُ

وقال كعب بن مالك: **يا رسول الله إن الله قد أنزل في الشعر ما علمت فكيف ترى فيه؟ فقال –صلى الله عليه وسلم–: إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونه نضح النبل.**

وعندما قال كعب بن مالك:

جاءت سخينة[3] كي تغالب ربها
فليغلبن مغالب الغلاب

فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «**لقد مدحك الله يا كعب في قولك هذا**»[4]، ثم ختم الآية بتهديد من انتصر بظلم **(وَسَيَعْلَمُ**

---

(1) القرطبي 153/13.
(2) اسمه المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب كان يهجو المسلمين والرسول -صلى الله عليه وسلم- أسلم بعد الفتح وحسن إسلامه.
(3) قريش.
(4) القرطبي 153/13.

الَّذِينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ).

وكان الرسول ﷺ يسمع الشعر المتضمن للحكم والمعاني الحسنة فقد استزاد الصحابي أبا الشريد من شعر أمية بن أبي الصلت واستحسنه كما جاء في صحيح مسلم وقال عن أمية ((**كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم**))، كما سمع قول كعب بن زهير:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

متيم إثرها لم يفد مكبول

على ما فيها من تشبيه الريق بالراح، والتي نص القرطبي على أنها من الاستعارات والتشبيهات التي يترخص بها[1].

ولقد سار الصحابة الكرام على هذا النهج وقالوا الشعر وسمعوه ما دام لا يدعو إلى ضلال أو رذيلة، فهذا أبو بكر الصديق ـرضي الله عنهـ ينشد في رثاء الرسول ﷺ:

فَقَدنا الوَحيَ مُذ وَلَّيتَ عَنّا

وَوَدَّعَنا مِنَ اللَهِ الكَلامُ

سِوى ما قَد تَرَكتَ لَنا رَهيناً

تَوارَثُهُ القَراطيسُ الكِرامُ

فَقَد أَورَثتَنا ميراثَ صِدقٍ

عَلَيكَ بِهِ التَحيَّةُ وَالسَلامُ

وكان الفاروق ـرضي الله عنهـ يسمع الشعر ويتأثر به إلا أنه كان يحاسب على الفحش من القول وهجاء الناس بغير حق، فها هو يحبس الحطيئة في بئر عندما اشتكى إليه الزبرقان من قول الحطيئة فيه:

دَعِ المَكارِمَ لا تَرحَل لِبُغيَتِها

وَاقعُد فَإِنَّكَ أَنتَ الطاعِمُ الكاسي

بعدما سأل حسان وهو أعلم بما في هذا البيت من هجاء ولكنه أراد أن يتثبت قبل إصدار حكمه، إلا أن الحطيئة كتب أبياتاً إلى عمر ـرضي الله عنهـ ومنها:

ماذا تَقولُ لأفراخٍ بِذي مَرَخٍ

حُمرِ الحَواصِلِ لا ماءٌ وَلا شَجَرُ

أَلقَيتَ كاسِبَهُم في قَعرِ مُظلِمَةٍ

فَاغفِر عَلَيكَ سَلامُ اللَهِ يا عُمَرُ

فرقَّ له عمر وذرفت عيناه إشفاقا فأخرجه من بئره واشترى منه أعراض الناس وكتب عليه عهداً أن لا يهجو مسلماً.

وروي أن النعمان بن عدي بن نظلة كان عاملا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال:

من مبلغ الحسناء أن حليلها

بميسان يسقى في زجاج وحنتم

إذا شئت غنتني دهاقين قرية

ورقاصة تجذو على كل منسم

فإن كنت ندماني فبالأكبر اسقني

ولا تسقني بالأصغر المتثلم

لعل أمير المؤمنين يسوءه

تنادمنا بالجوسق المتهدم

فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه بالقدوم عليه وقال: إي والله إني ليسوؤني ذلك فقال يا أمير المؤمنين ما فعلت شيئا مما قلت وإنما كانت فضلة من القول وقد قال الله تعالى:

(والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر

([1]) القرطبي 147/13.

أنهم في كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون) فقال له عمر: أما عذرك فقد درأ عنك الحد، ولكن لا تعمل لي عملا أبداً وقد قلت ما قلت[1].

وروي عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة أرسل وراء الشاعرين: عمر بن أبي ربيعة والأحوص فلما حضرا أمامه أقبل على عمر فقال هيه:

فلم أر كالتَّحْمِيرِ منظرَ ناظرٍ
ولا كليالي الحجّ أَفْلَتْنَ ذا هوَى
وكم ماليءٍ عينيه من شيءٍ غيرِه
إذا راح نحوَ الجمرةِ البِيضُ كالدُّمَى

أما والله لو اهتممت بأمر حجك لم تنظر إلى شيء غيرك فإذا لم يفلت الناس منك في هذه الأيام فمتى يفلتون؟! ثم أمر بنفيه، فتاب على يديه وعاهده على الصلاح فأطلقه، ثم دعا الأحوص فقال هيه:

اللهُ بيني وبين قَيِّمِها
يهرُب منِّي بها وأَتَّبِعُ

بل الله بين قيمها وبينك ثم أمر بنفيه.

وأما ما جاء عن رسول الله ـصلى الله عليه وسلمـ: **((لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا يريه خير من أن يمتلئ شعرا))** رواه مسلم، فهو الذي غلب عليه الشعر وامتلأ صدره منه دون علم سواه، فمن يخوض في الباطل ويسلك به مسالك لا تحمد له.

ولما كان الأدباء يعبرون على مر العصور بفنهم عن اتجاهاتهم فإن كلمة الأدب أصبحت كلمة حيادية لا بد من تقييدها، وظهرت اتجاهات في الأدب كالأدب الملتزم والمتحلل والإباحي والملتزم بالاشتراكية أو القومية أو العولمة .... ومن هنا كان لا بد من تمييز الأدب الملتزم بالإسلام ونهجه وشرعه وخلقه ويتبنى قضايا الأمة الإسلامية في خضم صراعها مع أعدائها وهو الأدب الإسلامي.

وسلاح القلم والأدب لا يقل خطورة وأثراً عن سلاح السيف، فهو الذي يدافع عن المظلومين ويفضح الطغاة والظلام والعملاء والخونة، والافتراء والتزوير أمام أجهزة الإعلام التي لا تترك وسيلة إلا وتستخدمها في سبيل إفساد وتضليل أمتنا وفي سبيل دفعنا نحو الانحراف أو الاستسلام والهزيمة، وعلى رأسها وسيلة الأدب، فكم من شعراء وقصاصين ومسرحيين ساروا في ركاب المستعمرين وروجوا لضلالاتهم وساهموا في بث الفرقة والضعف في أمتنا، فلا بد أن يأخذ الأدباء الإسلاميون دورهم.

وسنحاول إن شاء الله في العدد القادم إبراز دور الأدباء الإسلاميين في مسيرة الدفاع عن الإسلام وقضاياه العادلة.

([1]) القرطبي 149/3.